السموأل بين الحقيقة والأسطورة

□□ من منّا لم يسمع بالسموأل ؟ أو لم يقرأ عن وفائه ؟!

ومن منا لم يسمع بالمثل الذي يجري على الألسنة (أوفى من السموأل) ؟!

حقاً إننا جميعاً منذ بدأنا القراءة والدراسة رسخت في أذهاننا حادثة وفاء السموأل ، لأنها تلامس وتراً حساساً في نفس كل عربي يمجد الأخلاق الكريمة من وفاء وعزة نفس وإباء وأداء أمانة ..

ونحن جديرون بمعرفة حقيقة هذا الحدث وهذا الوفاء ، بل حري بنا أن نعرف من هو هذا السموأل الذي أسبغت عليه هذه الهالة وألبس هذه الشمائل الكريمة ؟ وإلى أي مدى يمكن أن يتحلى بهذه الأخلاق وهذه الصفات التي تنسب إليه ؟ □□

السموأل وقومه :

هو السموأل بن غريض بن عادياء ، من سكان خيبر ، وكان يتنقل بينها وبين حصن له في تيماء ، اسمه الأبلق ، وهو حكيم جاهلي توفي سنة ٦٥ق.هـ[١] .

ونعرف من اسمه هذا وموطنه أنه يهودي من بني إسرائيل ، وأن كلمة سموأل هي تعريب لكلمة **(صموئيل)** العبرية ، وكذلك له أخ اسمه شعية بن الغريض بن عادياء ، وهذا أيضاً تعريب لاسمه العبراني **(أشعيا)** ، كما أنه كان يقيم في المنطقة التي كان يسكنها بنو إسرائيل في أيام الجاهلية وأوائل صدر الإسلام ، إلى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** تحقيقاً لقول رسول الله ﷺ ، **(لا يجتمع في جزيرة العرب دينان)** .

وبنو إسرائيل اليهود هؤلاء هم الذين وصلوا إلى شمالي الحجاز بعد أن شردهم الحاكم الروماني هادريان وهدم الهيكل .

ونحن في غنى عن التعريف أو التذكير بأخلاق اليهود وطباعهم وتعاملهم مع الناس ، في الجانب النظري الذي يتمثل فيما سطروه ونسبوه إلى التوراة زوراً وبهتاناً ، أو دونوه في تلمودهم ، وفي الجانب العملي الذي ظهر جلياً في احتكاكهم مع القبائل العربية ، ومع المسلمين في عهد الرسول ﷺ .

وفاء السموأل أسطورة :

فمن أين يمكن أن يأتي السموأل بالوفاء إلى درجة التضحية بولده لأداء الأمانة ؟! من هنا نجد أن أحد كبار نقاد الأدب ودارسيه في العصر الحديث ، **وهو الدكتور شوقي ضيف** ، يرى أن هذه الحادثة ـ حادثة وفاء السموأل ـ هي أسطورة ، فهو يقول عنه في كتابه « **العصر الجاهلي** » ص٣٨٩ (... ومرت بنا أسطورته مع امرىء القيس ، وهي أن امرأ القيس ... ويذكر القصة) ، ثم يقول تعليقاً على القصة بعد قليل : « وسبق أن قلنا : إن هذا من باب الأساطير ، كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى التي عرضت لهذه القصة في إسهاب » ، وسبق له في ص٢٤٦ أن قال في حديثه عن الأعشى : « **ونراه في هذه القصيدة**

بقلم : صدقي البيـــك

رقم ٢٥ يسوق في تفصيل قصة السموال . وما كان من إيداع امرىء القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر . وحصار الحارث بن ظالم له حتى يأخذها ، وتحصنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه وقوله له : إما أن تسلم الأدراع إلي ، وإما أن أقتل ابنك . وأبى السموال أن يسلم الأمانة (!!) وفاءً ، فقتل الحارث ابنه تحت عينه[٢] ، وهي قصة مشكوك في أصلها ، ويزيدها شكاً في قصيدة الأعشى أنه رواها مفصلة بصورة تدل على أن القصيدة والقصة موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموال في الإسلام ... » .

وهذا يعني أن هذه القصة الأسطورة التي تناقلتها الألسنة الشعبية وأحاديث السمار . وذكرتها بعض كتب الأدب هي قصة مختلقة .

وأزيد على الأسباب التي ذكرت من قبل سببين للشك في هذه القصة :

الأول : هو أن امرأ القيس الذي كان طريد المنذر والحارث بن ظالم ، إذا أراد أن يأتمن أهله وأمواله وسلاحه فإنه يأتمن رجلاً قوياً بنفسه وبرجاله وقبيلته ، ومن أين للسموال في تيماء هذه القوة ، وهذا العدد الذي يحمي به طريد ملك كبير ؟!!

والسبب الثاني : هو أن اليهود هؤلاء من أين لهم الوفاء ؟ ومنذ متى كانوا في الجزيرة يجيرون أمثال امرىء القيس ؟ وإذا قيل : إن امرأ القيس اضطر إلى أن يلجأ إليه ، فهل يحفظ له أهله وأمواله هذا الضعيف ، بعد أن عجز عن إجارته الحارث بن شهاب وسعد بن الضباب الإيادي ، والمعلى بن تيم ، وعامر بن جوين الطائي .

وقد حلل الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان ، عندما كان يعمل في الإذاعة في فلسطين ، قبل النكبة بسنوات ، حلل هذه الحادثة (في حال صحتها) وقال ما معناه : إن السموال هذا لم يف لامرىء القيس بأمانته مضحياً بولده ، إنما هو ، على ما هو معروف عن اليهود من جشع وحب للمال ، آثر المال على ولده ، وفرط بابنه ليبقى المال ملكاً له !!!

هذا التحليل ، وتلك الأسباب تؤكد الشكوك التي تحوم حول القصة وتجعل الأمر على شبه اليقين من أن القصة مختلقة . وما دامت هذه الحكاية المختلقة تمجد شيمة الوفاء فإنها ذاعت وشاعت بين الناس .

قصيدة السموال من الشعر المنحـــول :

وهناك قضية أخرى تتعلق بالسموال هذا ، وهي مدار شك أيضاً ، تلك هي قصيدته المشهورة والمنتشرة على الألسنة إلى درجة أن بعض الأوساط الشعبية في فلسطين كانت ترددها وتتغنى بها في الاحتفالات والأعراس .

هـــذه القصـــيدة هي :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ　　فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وإنني كلما قرأت هذه القصيدة لمعت في خاطري صورة هذا الإنسان المثالي الذي يمثل قمة الفروسية والشهامة .

فالقصيدة تصل إلى أكثر من عشرين بيتاً يفخر فيها قائلها بقومه ، ويوردها **أحمد الهاشمي** في كتابه « **جواهر الأدب** » الجزء الثاني ص٢٥٩ .

والصفات التي يفخر بها قائل هذه القصيدة ، لا يمكن أن تكون صفات لقبيلة يهودية من بني إسرائيل ، فنحن نعلم أنهم كانوا طارئين على الجزيرة العربية ، ويعيشون فيها منعزلين عن الآخرين متقوقعين على أنفسهم ، في جوار القبائل العربية ، وتحت ولائهم ، وكل قبيلة من قبائل يهود توالي قبيلة عربية ، وكلنا نعلم من كتب السيرة أن بني النضير كانوا موالين للخزرج ، وسيدهم عبد الله بن أُبي بن سلول ، وأن بني قريظة كانوا موالي للأوس ، وسيدهم سعد بن معاذ ، وهذا يعني أن قبائل اليهود كانت بحاجة إلى الدخول في جوار إحدى القبائل العربية وموالاتها حتى تجد لنفسها الحماية ، فكيف يقول يهودي من بني إسرائيل هو السموال :

وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا　　عَزِيزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

فكيف يعطون العزة لمن يستجير بهم ؟ وهم على ما هم عليه من الذل ، حتى إنهم عندما وصلت جيوش المسلمين إلى خيبر ووادي القرى وفتحتها ، سارع أهل تيماء إلى الصلح ...

وكيف يستقيم هذا الفخر الذي تبدأ به القصيدة ، مع

السموأل بين الحقيقة والأسطورة

المألوف من حياة اليهود من بني إسرائيل وطباعهم ؟ هذا الفخر بطهارة العرض وبعده عن الأذى ، وطهارة النساء والرجال ، وصفاء الأصل .. هذا الفخر بعيد عن واقعهم وعن مبادئهم بنص ما يتبعونه من كتبهم المحرفة ، وليس أدل على ذلك من سفر « إستير » في توراتهم !!

اقرأ معي هذه الأبيـات من قصيدة السموأل ، لتتأكد من صدق ما أقول :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ   فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
صَفَوْنَا فَلَمْ نَكْدَرْ وَأَخْلَصَ سِرَّنَا   إِنَاثٌ أَطَابَتْ حَمْلَنَا وَفُحُولُ
عَلَوْنَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ .. وَحَطَّنَا   لِوَقْتٍ إِلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نُزُولُ

وفي القصيدة كلها صفة واحدة يمكن أن تتوفر في قوم السموأل ، تلك هي صفة القلة ، حقاً إنهم قليل في الجزيرة العربية ، ولكن هذه القلة لم تكن تغطيها كثرة البقايا من شباب وكهول تسمو نحو العلى ، ولا قلة الكرماء ، ولا عزة من يستجير بهم ، في حين تظهر ذلة من يستجير بأصحاب العدد الكثير .

فكيف إذاً يقول يهودي إسرائيلي مثل هذه الأبيات :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا   فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا   شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَى وَكُهُولُ
وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا   عَزِيزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

وإذا وصلنا إلى صفة نفسية ، وهي حب الموت والقتل والقتال ، وجدناها تشتمل عدة أبيات في القصيدة :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً   إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا   وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ   وَلا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا   وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ

فهؤلاء قوم مقاتلون ، لا يجدون في القتل عاراً ومذمة ، بل هم لا يموتون إلا قتلاً ، ولذلك لا تطول أعمارهم ، ولا يموتون إلا بالسيوف ، وإذا قتلوا لا تُطل دماؤهم ، بل يثأرون لقتلاهم من أعدائهم ، وإن تاريخ الأحداث في الجزيرة العربية لا يعطينا أي دليل على صدق هذه الدعوى ! وهي ادعاء عريض لا يجد

● إبراهيم طوقان : السموأل آثر المال على ولده وفرط بابنه ليبقى مالكاً للمال ●

الواقع ما يدعمه ، ونقطة ثانية في هذه الأبيات هي تلك المفاضلة على قبيلتين عربيتين : بني عامر ، وبني سلول ، في حب الموت وعدم المعرَّة بالقتل ، وهذا شيء لا يمكن أن يقوله يهود طارئون على الجزيرة أبداً .

وكيف تستقيم هذه الصفات مع ما يقوله الله تعالى عنهم في القرآن الكريم :

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍۭ . . . ﴾ (الحشر: ١٤) .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ . . . ﴾ (البقرة: ٦١) .

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٩٤-٩٥) .

وهل يمكن أن يقول هذا القول من احتمى في قصره الأبلق ، إن صحت هذه الرواية ، وهو عاجز عن سل سيف أو مواجهة عدو ، وهو يرى ولده يذبح ودمه يُطل ويسيل على الأرض ، ولا تأخذه الحمية ولا الغيرة فيخرج مقاتلاً للثأر ؟

ومن هذه الصفة ننتقل إلى صفة ملاصقة لها وهي الشجاعة والإقدام في ميادين القتال وكثرة المعارك التي يخوضونها وينتصرون فيها !!

هذه الصفات لا يمكن أن تتوافر في قوم السموأل ، فمن أين لهم الأيام المشهورة في مقارعة الأعداء ؟ وإذا استقرانا أيام الجاهلية (معاركها) فلن نجد يوماً واحداً لليهود على غيرهم من يهود آخرين ، ولا على قبيلة عربية ، إلا ما كان من محاولاتهم الإيقاع بين القبائل العربية بالمكر والدسائس الخبيثة فكيف يستقيم ذلك مع القول :

وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُوِّنَا   لَهَا غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وَحُجُولُ
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ   بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ أَلَّا تُسَلَّ نِصَالُهَا   فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

● شوقي ضيف : حادثة وفاء السموأل لا تخرج عن كونها أسطورة ●

● إن حادثة وفاء السموأل هي من باب الأساطير لأنها تخالف المألوف من حياة اليهود وطباعهم ..

وهناك صفة السيادة وتوارثها ، والقدرة على الإنكار على الآخرين ، فمن أين كانت لهم هذه الصفات ؟ من أين لهم أن يردوا على الناس ويستنكروا فعلهم ، ولا يستطيع أحد أن يعترض على افعالهم هم وأقوالهم ؟ ومن اين لهم استمرار هذه السيادة فيهم وكثرة السادة الذين يقودون ويسودون ؟

وَنُنْكِرُ إنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ   وَلا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُـولُ
إذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَـلا قَامَ سَيِّدٌ   قَؤُولٌ لِمَـا قَالَ الْكِرَامُ فَعُـولُ

ومن أين لهم الكرم الذي لا تخمده نار دون الطارقين ؟!

وَمَا أُخْمِدَتْ نَارٌ لَنَا دُونَ طَارِقٍ   وَلا ذَمَّنَـا فِي النَّازِلِينَ نَـزِيـلُ

وأما الأبيات التي تتحدث عن الجبل الذي ينزلون عليه ويعطيهم المنعة والحماية بعلوه ورسوّه ، فهي متلوّة ببيت يدل على أن هذا الجبل هو حصن الأبلق :

لَنَـا جَبَـلٌ يَحْتَلُّـه مَنْ نُجِيـرُهُ   مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّـرْفَ وَهْوَ كَلِيـلُ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ   إلَى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنَالُ طَوِيلُ
هُوَ الأَبْلَقُ الْفَرْدُ الَّذِي شَاعَ ذِكْرُهُ   يَعِـزُّ عَلَى مَنْ رَامَـهُ وَيَطُـولُ

وهذا البيت الأخير الذي يتحدث عن حصن الأبلق (**الذي شاع ذكره**) والذي يعز على من يرومه بالشر !! يؤكد لنا انه دخيل على القصيدة وانه الحق بها ، فما العلاقة بين الجبل الراسي تحت الأرض والسامي نحو النجم .. وبين الحصن ؟

وهذا الحصن (**الذي شاع ذكره**) هو حصن الأسطورة بعد أن تناقلتها الألسنة ووجدت فيها متعة ولذة ، وهو موصوف هنا بالصفة التي وردت في قصيدة الأعشى ذاتها ، هناك قال : (**بالابلق الفرد**) ، وهنا يقول : (**هو الأبلق الفرد**) ...

ولو كان قائل البيتين (**لنا جبل .... ورسا أصله** ...) يريد أن يستعير الجبل للدلالة على الحصن ، ما كان يمكن أن يفسر لنا ذلك استعارته التصريحية هذه بقوله : هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره .

****

وهكذا نجد من دراسة هذه القصيدة وتحليلها أنها لا يمكن أن يقولها يهودي إسرائيلي طارىء على الجزيرة العربية والمجتمع العربي بصفاته القبلية .

ولكن هذه القصيدة موجودة ، وقد نظمت فعلاً وهي معروضة في كتب الأدب القديمة والحديثة ، فإذا نفينا نسبتها إلى السموأل ، فمن قائلها ، أو من صاحبها ؟!

نعم هذا سؤال وجيه ، ويمكن الإجابة عليه إجابة عامة وهي : أن هذه القصيدة من الشعر الجاهلي المنحول !! ومع ذلك فهناك إجابة خاصة ودقيقة ، وقد أجابت بها كتب الأدب القديمة والحديثة ، فإن المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام ، يذكر أن هذه الأبيات للشاعر العربي العباسي عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، كما يذكر ذلك أيضاً الدكتور شوقي ضيف في كتابه « **تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي** » **باب شعراء آخرون** ، وقد ترجم لهذا الشاعر ابن المعتز في كتابه « **طبقات الشعراء** » .

وإذا ألقينا نظرة على ألفاظ القصيدة وأسلوبها ، وجدنا أنها بعيدة عن ألفاظ الشعر الجاهلي وأسلوبه ، فألفاظها مألوفة ، وليس فيها من الغريب ما يقربها من العصر الجاهلي أبداً .

وخلاصة القول إن ما نسب إلى السموأل من صفة الوقار ، ومن هذه القصيدة لا يمت إلى الواقع بصلة ، إنما هو من النحل والأساطير ..

هـــــوامش :

---

(١) انظر كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي .
(٢) وقصيدة الأعشى هي :

كُنْ كَالسَّمَوْأَلِ إذْ طَافَ الْهُمَامُ بِهِ   فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ
بِالأَبْلَقِ الْفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلُهُ   حِصْنٌ حَصِينٌ وَجَارٌ غَيْرُ غَدَّارِ
فَسَامَهُ خُطَّتَي خَسْفٍ فَقَالَ لَهُ :   قُلْ مَا تَشَاءُ فَإِنِّي سَامِعٌ حَارِ
فَقَالَ : ثُكْلٌ وَغَدْرٌ أَنْتَ بَيْنَهُمَا   فَاخْتَرْ ، وَمَا فِيهِمَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ
إلخ ...